وإذا كانت المذاهب الأدبية «لا تنشأ بإرادة فنان فرد ولا باتفاق مجموعة من الفنانين، وإنما هي جزء من بناء ثقافي عام معبر عن مرحلة اجتماعية من مراحل تطور المجتمع»[٦]، حسب ما يؤكد الدكتور عبد المنعم تليمة، وحسب ما يؤكد غيره من النقاد الذين أشرنا إلى آرائهم في صدر هذا البحث، فإن هناك سؤالاً يطرح ويستحق أن يجاب عنه، وهو السؤال الآتي: هل نشأت الواقعية الاشتراكية بفعل الإرادة فشذت عن سائر المذاهب الأخرى أم أنها كانت استجابة عفوية للتطورات الروحية والفكرية والاجتماعية؟.

يجيب عن هذا السؤال بعض النقاد الاشتراكيين فيعتقدون بأن الواقعية الاشتراكية نشأت بشكل طبيعي لا قسر فيه إطلاقاً، ويعدونها امتداداً للأدب الروسي القديم ذي الجذور المتغلغلة في التربة الروحية والاجتماعية الروسية. ويستدل «غروموف» على النشأة الطبيعية للواقعية الاشتراكية بتأخر ظهور المثقفين والأدباء الاشتراكيين عن ظهور الآراء الشيوعية، «فقد مر أكثر من سبعين عاماً بين الفترة التي وضع فيها ماركس وأنجلز أسس الشيوعية العلمية والفترة التي ظهرت فيها مؤلفات ماكسيم غوركي»[٧]، وهذا يعني أن الأدب الاشتراكي قد احتاج إلى وقت كي يختمر في الرؤوس، وكي يثق الكتاب بمبادىء الثورة البروليتارية. ومن هنا نجد «جورج لوكاتش» يحاول جاهداً أن يربط بين «تولستوي» المنضوي تحت لواء الواقعية النقدية وبين «غوركي» مؤسس الواقعية الاشتراكية في كثير من الأحيان[٨]، وكأنه يؤكد أن الأدب الاشتراكي لم يكن منعزلاً في نشأته عن الأدب الروسي. وربما كان هذا هو الغرض الذي كان يرمي إليه «لينين» حين كتب مقالاته عن «تولستوي» أيضاً[٩] إلا أن نقاداً آخرين يعترضون على الربط بين الأدب الروسي الأصيل الذي يمثله تولستوي، ودوستويفسكي، وغوغول، وتشيكوف، والأدب الاشتراكي الذي نجده عند أمثال غوركي، وشولوخوف، وسيمونوف، وغيرهم من الكتاب الذين يعدون كتاباتهم «نتيجة ابتداع بيروقراطي، فرض بشكل ميكانيكي على عملية الإبداع الحية كجسم غريب عليها»[١٠].